فهنّ من الفجور بحيثُ لا يواريهنّ خمار ، ليس فيهنّ عذراء ولا شريفة فاضلة عفة ، وليس بعد هذا مطلب لشاتم أو مقذع . ودواوين الشعراء الثلاثة : جرير والفرزدق والأخطل تغصّ بهذا اللون من الإقذاع ، فليس للقارئ إلا أن يقلب صفحات النقائض فهو واجد فيها بغيته من صور لا نستبيح لأنفسنا روايتها هنا . وليست هذه الدواوين الأموية وحدها معين القراء وإنما يجدون فى كتاب الحماسة شيئاً كثيراً من هذا الضرب ، فقد قال شاعر فى هجاء أيّم من النساء :

تجودُ بِرِجْليْها وتَمْنعُ دَرَّها وإنْ كلبت منها المودَّة هرَّتِ[1]

فهو يصمها بقلة الخير ، ويشبهها بالشاة التى تفلج رجليها فإذا أريد حلبها منعت ، فهى تساعد على كل رغبة للرجل ، غير أنها لا مودة لها ، ولا يبتغى عندها أسباب الحب والرحمة ، وإنما هى كالكلب تنبح وتهرّ .

فلما كان العصر العباسى وسرت لوثة الأعاجم وفسد الذوق العربى ظهر الفحش فى الهجاء على أسلوب آخر ، وكان من المبتدعين فيه بشار بن برد ، فقد كان يقول : « إنى وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع » . فبالغ فيه وأسهب ، وذكر الأم والأخت والأسرة ، وجعلهنّ فى الخنا وجعل الرجال شهوداً عليهنّ فقال :

لِنِساءِ الزَّنجيِّ فيمنْ يُصَلّى صَدقات يَفْضَحْنَ بنتاً وأخْتا

وهو ينزل على مهجوّه نزول الصاعقة كما نزل الجاهليون والأمويّون ، فيصف الأم فى حال لا تُرضى ولا تسر ، ويسرف فى الوصف حتى يذكر ما يقع لهذه المسكينة ، فيتصور أهلها نياماً ، ويتخيلها مع الريب تسير فى كلّ درب . ونحن حين نقتضب فى الوصف نخاف من الإثم فى إيراد كلّ ما وقع لديوانه من هذا الفحش المزرى ، فأقلّ عباراته تشمّ منها رائحة تُفسد الأنفَ والأسرَة والعرضَ فيقول :

كسْوبٌ بأخْتيْهِ وَقينةِ تاجِرٍ وَما كانَ فى كتّابه بكسوبِ

(١) الدر : اللبن ، هرت : صوتت .